

الدعاء في السراء والضراء



الدعاء مفتاح الحاجة، ومعنى ذلك أن الحاجة لم تكن في مُتناول أيدي الفاقدين ثم توفّر عليها بعد الاستجابة لدعائه، ممّا يعني أن هنالك دوائر كمالية مُغلقة لا ينفذ إليها الفاقدين إلا بوسيلة استثنائية، وهي الدعاء، فيكون الدعاء مفتاح مغاليق تلك الدوائر المغلقة، وقد ورد في ذلك عن أمير المؤمنين (ع) "الدعاء مفاتيح النجاح ومقاليد الفلاح"، فهو وسيلة النجاح لفتح مغاليق الكمالات التي يصبو إليها الفاقدين. وحيث إن هذه الدوائر تضم كل كمال مادّي ومعنوي لم يطله العبد الفاقدين، فإن الدعاء سوف يكون مفتاح مغاليق العالم بأسره، أو هو على أقل التقادير طريق واضح للوصول إلى تلك الدوائر المغلقة، من هنا يتأكد لنا المعنى الجليّ في الحديث المرويّ عن الإمام جعفر الصادق (ع) حيث يقول: "الدعاء هو العبادة التي قال ﷻ عزّ وجلّ: (إِنَّ السَّادِقِينَ إِسْتَكْبَرُوا عَنْهَا) (غافر/ 60)... ادعُ ﷻ عزّ وجلّ ولا تقل: إن الأمر قد فرغ منه". وإنّه يدفع القضاء المبرم، وهذا من أنصع الصور على كونه السر في فتح تلك المغاليق، فإن القضاء المبرم يعني غلق السُّبُل أمام الفاقدين، وما من شيء ينفذ به تجاه تلك الدوائر ليغيّر مجرى فقدان إلى الوجودان، غير الدعاء. وقد كان الإمام عليّ بن الحسين (عليهما السلام) يقول: "الدعاء يدفع البلاء النازل وما لم ينزل"، وقد أوضح لنا الإمام الرضا (ع) المراد من البلاء الذي لم ينزل، فعن عمر بن يزيد قال: "سمعت

أبا الحسن الرضا (ع) يقول: "إنَّ الدعاءَ يردُّ ما قد فُددَ وما لم يُقدَّر، فلت وما قد فُددَ عرفته، فما لم يُقدَّر؟ قال: حتى لا يكون". وممَّا حثَّ عليه أهل البيت (عليهم السلام) في مجال الدعاء: التواصل في الدعاء، فيكون العبد داعياً راجياً لربه تعالى في السراء والضراء، في الشدة والرخاء، لأنَّ الهدفَ الأعظم من وراء التزوُّد بثقافة الدعاء ليس قضاء الحوائج، فذلك أمر عرضيٌّ عند العارفين بالله تعالى، وإنَّما الهدفُ الأعظم والحقيقي هو نيل القرب من الله تعالى، ونيل القرب ليس مقروناً بالضراء أو الشدة ليتوفَّف الدعاء عند ذلك. كما أنَّ العبد هو أحوجُّ للدعاء في السراء والرخاء منه في الشدة والضراء، كما أنَّ الرخاء أوجبُّ للدعاء منه في الرخاء، وقد ورد هذا المعنى عن أمير المؤمنين عليٍّ (ع) إذ كان يقول: "ما من أحد ابتلي، وإن عظمت بلواه، بأحقَّ بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء"، ومن الواضح بأنَّه لا يوجد عاقل يأمن البلاء في حاله وترحاله، فما دامت الحركة والتحوُّل والتبدُّل قوام وجود الإنسان، فلا يبقى حال على حال. والشكر باب من أبواب الدعاء، ثمَّ إنَّه لا يُعلم أين مكان استجابة الدعاء عند الشدائد، فلعلَّ ذلك يكمن في الدعاء عند الرخاء، كما قال الصادق (ع): "إنَّ الدعاء في الرخاء يستخرج الحوائج في البلاء"، وأيضاً: "تعرف إلى الله عزَّ وجلَّ في الرخاء يعرفك في الشدة". ثمَّ إنَّ الدعاء في الرخاء كاشف إنسي عن الكمال الإنساني الذي عليه الداعي، بخلاف الدعاء في الضراء فإنَّه لا يكشف عن ذلك سلباً وإيجاباً، لأنَّ الدعاء هو تعبير آخر عن الانقطاع إلى الله تعالى، وهناك فرق عظيم بين الانقطاع الاضطراري الذي يُلزم الدعاء في الضراء، وبين الانقطاع الاختياري الذي يُلزم الدعاء في السراء. إنَّه الدعاء أن ترفع يدين طاهرتين إلى ربِّ كريم تسأله سؤال تضرع وذل ومسكنه وحاجة وافتقار إلى صاحب الجود والإنعام والرحمة والإحسان، تدعوه متأدباً بآداب الدعاء فإنَّ هذا الدعاء لا يرد بإذن الله أبداً أيها العبد الفقير المسكين ارفع يديك وادع الله فإذا دعوته سيستجيب لك فإنَّ الله جعل على نفسه حقاً أنك إذا دعوته ورجوته أن يستجيب لك مباشرة (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (غافر/ 60)، وقال (وَلَا تَسْأَلْكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة/ 186). فالدعاء دال على قرب صاحبه من الله فيسأله مسألة القريب للقريب لا نداء البعيد للبعيد. فاحملهم الدعاء ولا تحملهم الإجابة.